بنية الخطاب الإسلامي: دراسة في المضمون والوظيفة

د. أحمد محمد زايد
أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية المشارك
قسم الدعوة والثقافة الإسلامية – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة قطر
Ahmad.zayed.qu.edu.qa

تاريخ التحكيم: ٢٣/ ١٢/ ١٤٣٦ تاريخ الإجازة: ٢٧/ ١/ ١٤٣٧

المستخلص:

دراسة وجيزة تكشف النظر حول الخطاب الإسلامي من زاوية بنيته ومضمونه، فتحدد مفردات هذه البنية ووظيفتها في الخطاب، والغرض من ذلك الخروج بصورة تتسم بالتكامل والتوازن في المضمون، وتُحدثُ الإقناعَ والتغيير في النتيجة، فالخطاب الإسلامي في صورته المنشودة – حسب نظر الباحث – لابد من اشتمال بنيته على خمسة مضامين كبرى وهي: (محتوى الهداية العامة، المحتوى القيمي، المحتوى الفقهي، المحتوى المقاصدي، المحتوى السنني) ولكل مضمون منها وظيفة ينبغي العناية بها عمليا لينتقل الداعية من التأصيل والتوصيف إلى التفعيل والتشغيل.

الكلمات المفتاحية:

الخطاب – بنية – الهداية – القيمي – المقاصدي – السنني – الوظيفة.

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه أما بعد:

فهذا بحث في فن الدعوة إلى الله تعالى، عنونته بـ (بنية الخطاب الإسلامي، دراسة في المضمون والوظيفة). وهو دراسة وجيزة تكشف النظر حول الخطاب الإسلامي من زاوية بنيته ومضمونه، فتحدد مفردات هذه البنية ووظيفتها والأدوات التي تمكن الداعية من تفعيلها، والغرض من البحث الخروج بصورة تتسم بالتكامل والتوازن في المضمون الدعوي، وتُحدثُ الإقناعَ والتغيير في المدعوين، فبنية الخطاب الإسلامي في صورتها المنشودة – حسب نظر الباحث – لابد من اشتمالها على خمسة مضامين كبرى وهي: (محتوى الهداية العامة، المحتوى القيمي، المحتوى الفقهي، المحتوى المقاصدي، المحتوى السنني) ولكل مضمون منها وظيفته المقصودة التي ينبغي العناية بها عمليا لينتقل الداعية من التأصيل والتوصيف إلى التفعيل والتشغيل وصولا إلى الإصلاح والتغيير.

والبنية: كما في المعجم" هيئة البناء، ومنه بنية الكلمة، أي صيغتها، وفلان صحيح البنية: سليم[١]، والمراد هنا هيئة وصيغة ومكونات الخطاب الإسلامي، ومرادي بالخطاب الإسلامي: البيان الموجه إلى الناس عبر الوسائل المتعددة لدعوتهم إلى الإسلام. وأما المضمون فهو: المحتوى، ومنه مضمون الكتاب: ما في طيه، ومضمون الكلام: فحواه وما يفهم منه[٢]. والمراد في بحثنا لا يخرج عن المعنى اللغوي وأعني به مادة الخطاب الإسلامي المقدمة للمدعوين. والمراد بالوظيفة: هي العمل ولم أستعمل لفظة (دور) لخصوصية معناه في علم المنطق.

وأسال الله تعالى أن يكتب لهذه الكلمات القبول في السماء وفي الأرض، وأن ينفع بها كاتبها والناظر فيها.

---

(١) المعجم الوجيز (٢٧).

(٢) المعجم الوجيز (٣٩١).

التمهيد

المتابع للخطاب الإسلامي بصورة علمية نقدية فاحصة يرى بوضوح خللا في تكامل البنية والمادة والمحتوى الذي يحمله هذا الخطاب، فلو تجاوزنا الحديث عن خطاب العنف والإرهاب من البعض وهم قلة، وولجنا إلى المساحة المعقولة التي تعبر عن الفكر الوسطي العام في الأمة سنجد أننا في الجملة أمام خطاب جزئي، فهو إما خطاب غلب عليه الوعظ والقصص والتذكير وهو بهذا يصنع عقلية "علمانية" شئنا أم أبينا، عقلية لا ترى إلا الجانب التعبدي الشعائري من الإسلام، وإما خطاب فقهي جاف يعرض قوائم الحلال والحرام وما بينهما من درجات شرعية، دون نظر إلى ما ينبغي مراعاته من المقاصد، وفقه التنزيل، وحال المدعوين، والبيئة التي تحيط بهم وحالات الضرورات والإكراهات، والضعف والقوة وغير ذلك فيقدم بذلك الفقه جافا لا روح فيه، وقد يغلب على الخطاب الجانب القيمي الأخلاقي مجردا دون كشف عن فلسفة تلك الأخلاق والقيم في إقامة حياة بشرية متينة يسودها السلم، وفي الجملة فإن الملاحظ خلو خطابنا الإسلامي غالبا مما يمكن أن نسميه "الفقه الشامل" الذي يشتمل – إلى جانب فقه الأحكام – فقه الحياة بقوانينها وحركتها وصراعاتها وكيفيات تصرف المسلم في معتركاتها.

ويجزم الباحث أن الخطاب الإسلامي الضعيف هو أحد أسباب ضعفنا وانتكاساتنا. فلقد زرت دولاً كثيرة مسلمة وغير مسلمة في الشرق والغرب والشمال والجنوب، وكنت أرقب طبيعة الخطاب الإسلامي الموجه إلى الناس مسلمهم وكافرهم، فرصدت قصورا هائلا لو بقي بلا معالجة فستظل حقيقة الإسلام الكبرى وهدايته العظمى محجوبة عن ملايين بل مليارات من البشر، وسيحاسب المسلمون أمام الله تعالى على ذلك.

إن الخطاب الإسلامي أو الخطاب الديني الإسلامي المعاصر خطاب لا يبعث – غالبا – على الإغراء به وحفز النفوس نحوه، هذا إن لم يكن باعثا على النفور أو الخوف منه. والخلل في ذلك كما يرى الباحث مركب من أمرين أحدهما: الجزئية وضعف التكامل في بنية الخطاب المقدم من حيث محتوياته الفكرية ومفرداته المعرفية التي تقدم صورة غير متكاملة عن الإسلام(١) مع الضعف في الغرض الوظيفي لتلك المفردات. وثانيهما: ضعف الواقع الحضاري للأمة الإسلامية، بحيث أصبح لا يغري بحب رسالتها، ولا يشجع على الانفتاح على مضامينها(٢)

الدافع إلى الكتابة في هذا الموضوع ما يأتي:

توفرت مظاهر عدة كانت الدافع وراء الكتابة في موضوع الدراسة، منها:

- تشوه الصورة العامة للخطاب الإسلامي بتغليب بعض جوانبه وتضخيمها على حساب جوانب أخرى، وبضعف توظيف تلك المفردات توظيفا أمثل يحقق الغرض من الخطاب.

- تصدير خطاب مخيف ومرعب من بعض التيارات المحسوبة على الحركة

(١) وقد غلب الجانب الوعظي في الخطاب الدعوي على سائر الجوانب حتى غدت كثير من جماهير الأمة تجهل حقائق الإسلام الشامل في السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية وسائر جوانب الحياة، مما يمكن أن نسميه (علمنة الإسلام)، حتى إن كثيرا من العوام لا يتقبلون طرح تلك الجوانب ظانين ان لا علاقة لها بالإسلام.

(٢) حدثني أحد الشباب المسلم في ألمانيا أنهم يجدون عقبة في دعوة الألمان إلى الإسلام، حيث يواجههم الألمان بقولهم أنتم جئتم هنا إما طلبا للعلم أو المال والعمل أو طلبا للأمن، وهذه مقومات الحياة الرئيسة (المال والعلم والأمن) فإن كان دينكم حقا فلم لم يوفر لكم هذه الأسس والمقومات، وبقطع النظر عن عدم وجاهة الكلام وما يتضمنه من مغالطة، فهكذا يفهمنا الآخر وهكذا ينظر من يربط بين رسالتنا وبين تخلفنا الحضاري.

الإسلامية، أو خطاب مكرور ممل من كثير من الدعاة الرسميين.

ومن ثم كانت رغبة الباحث في تقديم رؤية علمية تسهم في ترشيد الخطاب الإسلامي ليكون خطابا متكاملا فاعلا، وسط تلك الأنواع المتضاربة من الخطابات المنتسبة إلى الإسلام.

الدراسات السابقة:

تعددت الدراسات حول الخطاب الديني في العالم الإسلامي، والحاجة إلى تجديده وبخاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر المعروفة، وأحسن الكثير من هؤلاء فيما كتبوا، فقد وضعوا مواصفات الخطاب الدعوي وضوابط وعوامل تأثيره، وكيفيات مواكبة الخطاب الإسلامي لحاجات العصر، والتحذير من أن يقوم بالتجديد من ليسوا أهلا لذلك، وفرقوا بين التجديد والتحريف، إلى غير ذلك، وبقيت مسألة "البنية"، أو "المحتوى" الحلقة الأضعف في المعالجة والتناول، فجاءت هذه الدراسة لتبحث الصورة المتكاملة لمضمون الخطاب الإسلامي وصولا به إلى حالة "تكامل البنية وتوازن المضمون" بدلا من كونه خطابا جزئيا يغلب عليه الجانب الوعظي أحيانا كثيرة، والفقهي أحيانا أخرى، ومن هنا كانت مشكلة الدراسة.

مشكلة الدراسة:

تبحث الدراسة عن جواب لسؤالين كبيرين هما:

- ما المضامين الكبرى وما المداخل الكلية للخطاب الإسلامي المنشود؟
- ما البعد الوظيفي لهذه المضامين المكونة لبنية الخطاب الإسلامي؟

ورأى الباحث أن الخطاب الإسلامي في صورته المنشودة لابد من اشتمال

بنيته على المضامين والمحتويات الخمسة الكبرى وهي: (محتوى الهداية العامة، المحتوى القيمي، المحتوى الفقهي، المحتوى المقاصدي، المحتوى السنني).

منهج البحث:

اتبعت في البحث ثلاثة مناهج هي:

- المنهج الاستقرائي(١): حيث تتبعت الكثير من مواد الخطاب الإسلامي المعاصر مقروءة ومسموعة ومرئية، ثم تتبعت كثيرا من جوانب تراثنا الفقهي والقيمي والمقاصدي والسنني.

- المنهج التحليلي(٢): بالوقوف على تفسير جلي للنصوص ذات العلاقة بموضوعنا، ثم تحليل بعض الظواهر الإسلامية، والتأمل في واقع خطابنا الإسلامي المحلي والعالمي.

- والمنهج الاستنباطي(٣): وبه استخلصت النتائج وما ينبغي أن تكون عليه صورة الخطاب الإسلامي الفاعل.

---

(١) المنهج الاستقرائي هو: "تصفح أمور جزئية ليحكم بحكمها على أمر يشمل تلك الجزئيات" المستصفى للغزالي (٦٤). وهذا المنهج عادة ما ينطلق الباحث فيه من فحص الجزئيات للوصول إلى حكم أو قانون عام كلي، وهو منهج دقيق يستعمل في الدراسات الشرعية وغيرها.

(٢) المنهج التحليلي هو: "منهج يقوم على دراسة الإشكالات العلمية المختلفة، تفكيكا، أو تركيبا، أو تقويما". ويقوم هذا المنهج على التفسير والنقد. أبجديات البحث في العلوم الشرعية محاولة في التأصيل المنهجي د/ فريد الأنصاري.

(٣) المنهج الاستنباطي هو: الانتقال بصورة منطقية من المبادئ والنتائج القائمة على البداهات والمسلمات العلمية إلى الجزئيات وإلى استنتاجات فردية معينة، بمعنى أن الأسلوب الاستقرائي يهدف إلى التحقق من الفروض وإثباتها عن طريق الاختبار. منهجية البحث، (٢٤). مانيو جيدير، ترجمة: ملكة أبيض.

واختصارا لحجم الهوامش فضلت ذكر الكتاب والمؤلف فقط فيها، وأرجأت إيراد معلومات الكتاب ثم ذكرتها في قائمة المراجع نهاية البحث، وهذه طريقة متبعة.

وقد جاء بناء البحث مرتبا على مقدمة وخمسة مباحث وخاتمة

أما المقدمة فبينت فيها مشكلة البحث، وسؤاله، والدراسات السابقة، ومنهج البحث.

وأما المباحث الخمسة فجاءت كالتالي:

المبحث الأول: محتوى الهداية العامة ووظيفته.

المطلب الأول: محتوى الهداية العامة في الخطاب الإسلامي.

المطلب الثاني: وظيفة محتوى الهداية في الخطاب الإسلامي.

المبحث الثاني: المحتوى القيمي ووظيفته.

المطلب الأول: المحتوى القيمي في الخطاب الإسلامي.

المطلب الثاني: وظيفة المحتوى القيمي في الخطاب الإسلامي.

المبحث الثالث: المحتوى الفقهي ووظيفته.

المطلب الأول: المحتوى الفقهي في الخطاب الإسلامي.

المطلب الثاني: وظيفة المحتوى الفقهي في الخطاب الإسلامي.

المبحث الرابع: المحتوى المقاصدي ووظيفته.

المطلب الأول: المحتوى المقاصدي في الخطاب الإسلامي.

المطلب الثاني: وظيفة المحتوى المقاصدي في الخطاب الإسلامي.

المبحث الخامس: المحتوى السنني ووظيفته.

المطلب الأول: المحتوى السني في الخطاب الإسلامي.

المطلب الثاني: وظيفة المحتوى السنني في الخطاب الإسلامي.

ثم نتائج البحث، وأهم المراجع، والفهرس

المبحث الأول

محتوى الهداية العامة ووظيفته

الهداية هي الهدف الأعلى من إنزال القرآن العظيم، بل كل كتب الله المنزلة، وهي محور عمل الرسل ومركز عمل الأنبياء، وأجمعُ وصفٍ للقرآن أنه كتاب هداية، وينبغي أن يدرك الدعاة أن "محتوى الهداية" أحد المضامين الكبرى في الخطاب الإسلامي، وأتناول هذا المسألة في مطلبين:

المطلب الأول

محتوى الهداية العامة في الخطاب الإسلامي

مركزية مفهوم "الهداية" في الخطاب القرآني:

بتتبع لفظ (الهدى) واشتقاقاته في القرآن الكريم نجد أن وروده قد تعدد بصورة لافتة، **حيث بلغت ثلاث مائة وثماني مرات**، بصيغ مختلفة، ففي مواضع جاءت بصيغة الفعل الماضي أو المضارع، ومرات بصيغة الأمر على سبيل الدعاء، وأخرى بصيغة المصدر، وهذه الكثرة تنبئ عن مركزية هذه القضية في القرآن، وتؤكد أن المقصد الأعلى من حركة الأنبياء هو (هداية الخلق).

إطلاقات لفظ "الهداية" في الخطاب القرآني:

الهداية: كما يعرفها الراغب هي "الدلالة بلطف"[(١)]، والدلالة في السياق الإسلامي إنما هي وظيفة إرشادية يقوم بها الدعاة لتعريف الناس الطريق الصحيح نحو الغاية التي خلقوا من أجلها، وتشير الإحصائيات المعاصرة أن أكثر البشر بعيدون عن تلك الغاية حيث تفرقت بهم السبل إلى دين سماوي محرف، ونحلة

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (٥٣٨).

أرضية مختلقة، حتى غدوا في أمس الحاجة إلى تلك الهداية.

وقد تتبع الراغب الأصفهاني لفظ "الهداية" في مواضعه من القرآن الكريم وذكر أن الهداية تطلق على معان عدة:

- الأول: الهداية التي عم بجنسها كل مكلف من العقل، والفطنة، والمعارف الضرورية التي أعم منها كل شيء بقدر فيه حسب احتماله كما قال تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾(١).
- الثاني: الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء، وإنزال القرآن ونحو ذلك، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾(٢).
- الثالث: التوفيق الذي يختص به من اهتدى، وهو المعنى بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾(٣)، وقوله: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾(٤)....
- الرابع: الهداية في الآخرة إلى الجنة المعني بقوله: ﴿سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ﴾(٥)... إلخ."(٦)

ومقصودنا من هذه المراتب المرتبة الثانية التي هي وظيفتنا نحن المسلمين من حيث كوننا مطالبين بدعوة الناس ودلالتهم على الحق، ومن حيث كون ذلك "الاهتداء" هدفا رئيسا لرسالة الإسلام، دلت عليه آيات كثيرة من الوحي الشريف

---

(١) سورة طه: ٥٠.

(٢) سورة السجدة: ٢٤.

(٣) سورة محمد: ١٧.

(٤) سورة التغابن: ١١.

(٥) سورة محمد: ٥.

(٦) المفردات (٥٣٨ – ٥٣٩)بتصرف يسير،مصدر سابق.

منها قول الله تعالى عن القرآن: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾(١)، وهي هداية عامة للناس كل الناس، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾(٤).

مقتضيات كون "الهداية العامة" قضية مركزية في الخطاب الإسلامي

إذا ثبت كون "الهداية" مقصدا أعلى للرسالة الإسلامية فإن القيام بها يقتضي عدة متطلبات نوردها إجمالا ثم نأتي على تفصيلها، أما إجمالا فهي:

١) التلازم بين الخطاب "بالهداية" وإشعار المدعو بمعاني "الرحمة" الإسلامية.
٢) الخطاب بالقرآن الكريم.
٣) التيسير والتبشير.
٤) وصول الخطاب الإسلامي إلى درجة "البلاغ المبين".
٥) مراعاة الخطوط العامة لتحقيق "الهداية" العامة.

وأما التفصيل فعلى ما يأتي:

١) التلازم بين الخطاب "بالهداية" وإشعار المدعو بمعاني "الرحمة" الإسلامية.

فمن لطائف ما وقفت عليه أثناء البحث هو تساوي عدد لفظ (الهدى) مع لفظ (الرحمة) في القرآن وقد أدرك هذا المعنى عبد الرازق نوفل وسجله في بعض

(١) سورة البقرة: ١٨٥.
(٢) سورة الإسراء: ٩.
(٣) سورة النحل: ٨٩.
(٤) سورة طه: ١٢٣.

كتبه قائلا إن: "عدد ذكر "الرحمة" يساوي عدد مرات ذكر "الهدى"، فلقد تكرر كل من اللفظين ٧٩ مرة في القرآن الكريم"(١).

ومثل هذه اللفتة الإعجازية ينبغي أن تنبه العقول إلى ضرورة تلازم معنى "الرحمة" مع القائم بمهمة "الدلالة والهداية" حتى يجدها المدعوون في قسمات وجه الدعاة وفلتات ألسنتهم، فما "الهداية" في حقيقتها ونتيجتها إلا "رحمة" ولا يتصور أن تقدم "الهداية" بمنأى عن معاني الرحمة والشفقة، والرحمة معنى إنساني قبل كل شيء، يشعر الإنسان بالحاجة الدائمة إليه، وبخاصة في ظل طغيان التوجهات المادية على حياته المعاصرة طغيانا جرده من كثير من معاني إنسانيته، فغدت "الرحمة" "والهداية" أحد أشواقه الروحية.

لقد وصف الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بأنه "رؤوف رحيم" وأنه "رحمة للعالمين" وتمثل ذلك عمليا في التطبيقات النبوية العديدة التي ظهرت فيها معاني الشفقة على الخلق والرفق بهم وتقدير أعذارهم، والحرص عليهم، ورجاء هدايتهم لدرجة أن نفسه ﷺ كادت تزهق وتخرج حزنا على من أعرض عن "الهداية".

وقد تمثل هذا المعنى الشيخ عبد القادر الجيلاني الحنبلي حيث يقول عن نفسه: " إذا رأيتُ وجه مريد صادق قد أفلح على يدي شبعتُ وارتويتُ واكتسيتُ وفرحت، كيف خرج مثله من تحت يدي"(٢).

٢) الخطاب بالقرآن الكريم:

من مقتضيات كون "الهداية" أحد مكونات الخطاب الإسلامي، مخاطبة

---

(١) الإعجاز العددي للقرآن الكريم عبدالرازق نوفل (١٧٦).

(٢) الفتح الرباني والفيض الرحماني عبدالقادر الجيلاني (٣٧).

الناس بآيات الكتاب العزيز فهو منبع الهداية، ويمكن للدعاة تلاوته على المدعوين مباشرة عربا كانوا أو عجما، متعلمين وأميين، فللقرآن سره العجيب وتأثيره الملحوظ حتى في أولئك الذين لا يفهمون العربية، والتجارب في ذلك لا تحصى.

لقد كانت التلاوة المباشرة من رسول الله ﷺ للقرآن علي الكفار وسيلة فعالة في الدعوة إلى هداية الإسلام، ففي سيرة ابن هشام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أن عتبة بن ربيعة جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السطة – المكانة – في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: قل يا أبا الوليد أسمع، فقال له عتبة ما قال حتى إذا فرغ قال له: أوقد فرغت يا أبا الوليد؟. قال نعم. قال: فاسمع مني، قال: أفعل. فأخذ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يتلو عليه من سورة فصلت، حتى انتهى إلى الآية موضع السجدة منها وهي الآية ٣٧، سجد، ثم قال لعتبة: قد سمعت يا أبا الوليد فأنت وذلك، فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بوجه غير الوجه الذي ذهب به، وطلب عتبة إليهم أن يدعوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وشأنه، فأبوا وقالوا له: سحرك يا أبا الوليد بلسانه"(١).

وقد مارس الصحابة الكرام نفس الأسلوب، فكانوا يخاطبون المدعوين مباشرة بالقرآن، ففي سيرة ابن هشام كذلك يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومن أروع ما يُروى من نجاحه – أي مصعب – في الدعوة أن أسعد بن زرارة خرج به يومًا يريد دار بني عبد

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٩٣) قال محقق الكتاب(إسناده مرسل، والحديث حسن) رواه البيهقي (٢/ ٢٠٤) في الدلائل، وابن كثير في البداية(٣/ ٦٣).

الأشهل، ودار بني ظفر، فدخلا في حائط من حوائط بني ظفر، وجلس على بئر يُقال لها: بئر مرق، واجتمع إليهما رجال من المسلمين، وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدا قومهما من بني عبد الأشهل يومئذ على الشرك، فلما سمعا بذلك قال سعد لأسيد: اذهب إلى هذين اللذين قد أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، وانههما عن أن يأتيا دارنا فإن أسعد بن زرارة ابن خالتي، ولولا ذلك لكفيتك هذا. فأخذ أسيد حربته وأقبل إليهما، فلما رآه أسعد؛ قال لمصعب: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه. قال مصعب: "إن يجلس أُكلِّمه". وجاء أسيد فوقف عليهما متشتمًا، وقال: ما جاء بكما إلينا؟ تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: "أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره؟ فقال: أنصفت. ثم ركز حربته وجلس، فكلمه مصعب بالإسلام وتلا عليه القرآن، قال: فو الله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، في إشراقه وتهلله، ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا هذا الدين؟"[(١)]. "ولما عاد أسيد إلى سعد بن معاذ قال سعد: أحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم! ولما ذهب سعد إلى مصعب ليطرده ويكفه عن الدعوة، فعل معه مصعب مثل ما فعل مع أسيد، ورد سعد بمثل ما رد أسيد بعد أن قرأ عليه القرآن، ولما عاد إلى قومه قالوا: نحلف بالله لقد رجع بغير الوجه الذي ذهب به"[(٢)].

٣) التيسير والتبشير:

سبق تعريف الراغب الأصفهاني معنى الهداية بأنها "الدلالة بلطف" يفهم من هذا أن "الهداية" و"اللطف" صنوان، وانفصال اللطف عن الدلالة يحول دون قبول

(١) السيرة النبوية لابن هشام(١/ ٤٣٦ – ٤٣٧) مصدر سابق، قال محقق الكتاب: إسناده مرسل.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٣٧) مصدر سابق. قال محقق الكتاب: إسناده مرسل.

الهداية، ولا يحقق معنى الإرشاد والتوجيه والدلالة، وقد يسر الله تعالى شريعته على عباده تيسيرا حيث تضمن خطابه تعالى إلى خلقه في هذا السياق المعاني الآتية:

- تيسير أعمال الإيمان والترغيب في تكاليفه ببيان مقاصدها وغاياتها وعللها.
- تشريع الرخص وتنوعها لرفع الحرج عن الخلق ليظلوا في علاقة دائمة مع ربهم.
- عدم التكليف بما لا يطاق، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾(١).
- ربط الأعمال الصالحة بالأجر ومضاعفة ذلك الأجر بحيث تنشط النفوس في أعمال الإيمان وتستمر.
- ذكر قصص الصالحين والمجاهدين والعابدين كنموذج يقتدى في الهمة للقيام بأعمال الإيمان.
- تيسير القرآن للذكر والفهم والتأكيد على أن الله لا يريد بالناس الحرج ولا العسر، حتى غدا اليسر والتيسير خصيصة كبرى عرف بها الخطاب الإسلامي القرآني والنبوي.
- ذم التشدد والتشديد والتنفير من كل تصرف فيه تعسير على الخلق، أو تشديد على النفس قولا أو فعلا.
- توصية الدعاة والمبعوثين بالدعوة أن ييسروا ولا يعسروا ففي الحديث: "يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا"(٢).

---

(١) سورة الطلاق: ٧.

(٢) رواه مسلم في الصحيح كتاب/ الجهاد والسير، باب/ في الأمر بالتيسير وترك التنفير(٣٢٦٩).

٤) وصول الخطاب الإسلامي إلى درجة "البلاغ المبين":

من مقتضيات إيصال الهداية للعالمين أن نصل برسالتنا إلى درجة (البلاغ المبين) وهو "الأداء الواضح" الذي يدرك الجميع به المراد من الرسالة.

ومن المتيقن أن رسالة الإسلام حتى يوم الناس هذا لم تبلغ إلى العالمين على هذا الوجه المطلوب شرعا، رغم توفر وسائل الاتصال الحديثة بكافة صنوفها. ويلزم للوصول إلى درجة (البلاغ المبين) تحقيق أمرين:

- استيعاب الداعي رسالته استيعابا شاملا بحيث يتمكن من التعبير عن صورتها الكاملة بعيدا عن الاجتزاء المخل.

- تقديم الصورة الكاملة للإسلام تحقيقا لقوله تعالى: ﴿بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[1]، وما أنزل إليه ﷺ إنما هو الدين الكامل التام، وليست أجزاء متفرقة نسميها نحن دينا، وأي خلل في هذين الأمرين يحدث خللا في تقبل مسألة الهداية أو في تصورها بعد قبولها.

أما من حيث الوسائل فلابد من اللقاء المباشر بين الداعي والمدعو لقاءً يتمكن به المدعو من النقاش والأخذ والرد والاستفسار والحوار، ولا يمكن الاعتماد في البلاغ المبين على مجرد رسالة مكتوبة أو موقع إليكتروني أو برنامج هنا وهناك وسط هذه الأعاصير من الشبهات حول الإسلام، ولا يخفى أن المواقع الإليكترونية فيها ما فيها من توجهات مختلفة بعضها منسوب إلى الإسلام كذبا وزورا، وبعضها إما مترخص جدا أو متشدد جدا إلى غير ذلك من الإشكالات التي تكتنفها، وعلى هذا فلا يمكن اعتبار أن وسائل التقنية الحديثة قد حققت

---

(١) المائدة: ٦٧.

البلاغ المبين كشرط لبراءة ذمة الدعاة، فلن يتحقق ذلك في رأيي دون علاقة مباشرة بين الطرفين، ولا يصح الاحتجاج هنا بأن كثيرا من الناس قد أسلم بفضل هذه الوسائل، إذ يمكن أن يقال إنه قد ارتد الكثير أيضا وكره الإسلام بفعلها وتأثيرها.

٥) مراعاة الخطوط العامة لتحقيق "الهداية" العامة.

تركيزا على جانب "الهداية" باعتباره أبرز محتويات الخطاب الإسلامي يلزم مراعاة الأصول العامة للهداية المستنبطة من القرآن الكريم وهي:

١. التركيز على قضية الفهم وإعمال العقل، حيث جاء الإسلام لتحريره وحمايته، ودفعه للقيام بوظيفته الأساسية، إذ العقل مفتاح العلم الذي هو طريق الهداية.

٢. إعلاء قيمة العلم والتعلم كأصل كبير من أصول الهداية في الإسلام، والتركيز عليه بسوق هذا الحشد الهائل من النصوص القرآنية والنبوية، التي تحث على العلم وتعلي من شان أهله.

٣. العناية بالعقيدة الإسلامية، فمن شأنها – متى أحسنا عرضها – سوق الناس إلى ربهم وهدايتهم إلى غايتهم، وأنبه هنا على الفرق الكبير بين العقيدة بصورتها الربانية، وبين ما يظنه البعض "عقيدة" مما غلبت عليه التشقيقات الكلامية والآراء المذهبية في مسائل الاعتقاد.

٤. العناية بالعبادات وما تثمره من روحانيات ونور وحلاوة، وبيان تأثيراتها في الحياة كانعكاسات إيجابية في الروح والسلوك.

٥. التركيز على جوانب التزكية والتربية والتهذيب والمجاهدة للنفس وبيان وجوبية هذا العمل وضرورة استمراريته.

٦. توضيح الكم الهائل من التشريعات الاجتماعية التي تنظم العلاقات بين أفراد المجتمع، وتعمل على تكوين أسر قوية متماسكة وفق منظومة الحلال، وتمتد تلك التشريعات والمبادئ لتعطي تصورا لتنظيم العلاقات بين عموم الخلق.

٧. بناء السلوك الراشد من خلال جملة الآداب والفضائل والأخلاق التي من شأنها بث الروح في الحياة وإعلاء جانب الذوق والجمال والفضيلة في جوانبها.

٨. الاهتمام بجانب إنسانية الإنسان ومكانته ومركزيته في الكون، فهو المكرم بتكريم الله تعالى إياه، مما يدفعه إلى الارتقاء بنفسه وعقله وروحه وسلوكه إلى درجات الكمال البشري بعيدا عن سفليات البهيمية.

إن مراعاة هذه الخطوط العامة في الخطاب الإسلامي والتركيز عليها يحقق جانبا كبيرا من عطاءات الهداية في الخلق.

المطلب الثاني

وظيفة محتوى (الهداية) في الخطاب الإسلامي

إن حضور محتوى "الهداية" بجلاء في الخطاب الإسلامي له وظيفتان:

- **الأولى: ضبط الموقف النفسي للدعاة وحاملي الرسالة ليكون متزنا من الداخل**، فيتجلى ذلك الاتزان في حركة منضبطة سمتها الشفقة والرحمة، تختفي معها روح العداوة والانتقام والرغبة في هلاك المعرضين، كما تكون بعيدة عن كل معنى يوحي بالاحتقار أو السخرية أو التشفي في الكافر أو العاصي، إذ المقصود الأعظم خلاص هؤلاء من الضلال وإخراجهم إلى الهداية في كل شيء، ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[1]

(١) سورة إبراهيم: ١.

وعن ذلك الموقف النفسي المعبر عن حرص شديد على هداية المدعوين يحدثنا القرآن الكريم واصفا حال النبي ﷺ قائلا: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[١]، قال القرطبي في تفسيره: "«بَاخِعٌ» أي مهلك وقاتل...والمعنى على أثر توليهم وإعراضهم عنك"[٢].

● **الثانية: ضبط بنية الخطاب الإسلامي واتزانها واستقامتها نحو المقصود الرباني**، بحيث يخلو من روح التناقض والثنائيات التي توهم التعارض كثنائية الدنيا والآخرة، وثنائية الدين والعلم، وثنائية الروح والمادة، وثنائية الفرد والجماعة، والدولة والمجتمع، وعلوم الشرع وعلوم الدنيا، كل هذه الثنائيات التي لا تعارض بينها في الإسلام ينبغي أن تعرض على الجماهير على أنها متوافقة لا متعارضة، ودور الخطاب الإسلامي هو تعليم الناس كيفية الموازنة بين هذه الجوانب على أساس التكامل لا التعارض.

إن الخروج بالخطاب الإسلامي عن وظيفته في جانب الهداية ليتحول إلى مجرد صيحات أو كلمات أو مقالات تطلق دون اعتبار هذه المعايير والضوابط والموازين ينحو به إلى غير مقصده الشرعي الذي عبر الشاطبي عنه بقوله: "المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبدا لله اختيارا، كما هو عبد له اضطرارا "ثم قال: "قصد الشارع الخروج عن اتباع الهوى، والدخول تحت التعبد للمولى"[٣].

---

(١) سورة الكهف: ٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٣/ ٢٠٧).

(٣) الموافقات (٢/ ١١٤).

المبحث الثاني

المحتوى القيمي في الخطاب الإسلامي ووظيفته

القيم أحد الخطوط العريضة في بنية الخطاب الإسلامي، فهي تمثل روح الرسالة وثمرة الهداية، ونبحث هذا المحتوى الرئيس في مطلبين:

المطلب الأول

المحتوى القيمي في الخطاب الإسلامي

تعددت تعريفات مصطلح "القيم" حيث يطلق عند البعض "على كل موضوع نرغب فيه، أو كل هدف نسعى إلى بلوغه، أو كل توازن نحرص على تحقيقه"[١].

ولا يعدُّ هذا تعريفا للقيم، إذ هو أقرب إلى تعريف الهدف، ولا يتناول معنى القيمة، والبعض سوَّىَ بين القيم والأخلاق مع أن الأمر ليس كذلك.

ويمكن تعريف القيمة بأنها: " وصف معياري متعلق بالأفعال والأفكار يقتدر معه على تمييز الحسن من القبيح، وميزان لما يجب أن تكون عليه الحياة العامة والخاصة"

وعليه فالقيم منظومة معيارية حاكمة وضابطة لحركة الحياة في جانب الحكم على حسنها وقبيحها، المرغوب منها وغير المرغوب. بحيث تسير وفق معيار دقيق بعيد عن الأهواء والنزعات الفردية غير المنضبطة، وعند استقرار منظومة قيم ما في مجتمع فإن التحاكم إليها باعتبارها معيارا حاكما يحقق قدرا كبيرا من التوافق وعدم الاختلاف.

---

(١) مدخل الى الفلسفة ومشكلاتها، د/ حربي عباس عطيتو، د/ موزة محمد عبيدان (٢٤٧).

القيم في الخطاب الإسلامي:

عند البحث فيما كتب عن تحديد منظومة القيم نرى اختلافا كبيرا في ذلك بين نظرة الفلاسفة وبين العلماء المسلمين، بل حتى بين المسلمين أنفسهم، فموضوع "القيم" شائك من حيث تعدد الوجهات في بحثه وتحديد منظومته كما ذكرنا، إلا إنه يمكن جمع القدر المشترك أو شبه المتفق عليه بين الباحثين في الموضوع، وهنا أنبه على ثلاثة أمور:

أولهما: تغاير مفهوم وحقيقة القيم عن الأخلاق، وقد وقع البعض في الخلط بينهما دون تمييز.

ثانيهما: تنوع القيم وتوزعها حسب مجالها، فهناك القيم السياسية والاقتصادية والفلسفية وغير ذلك.

الثالث: أن القيم تتنوع ما بين قيم ثابتة وأخرى متغيرة، ولها تصنيفات أخرى يرجع إليها في كتب الفلسفة وغيرها(١).

ويميل الباحث إلى ضرورة أن يكون المنطلق في تحديد سلم القيم هو الخطاب القرآني، وهنا نقف على ما بحثه عبد الرحمن الحاج حيث رأي بعد مناقشة طويلة لتوجهات الباحثين في موضوع القيم أن المنظومة القيمية التوحيدية مرتبة على نحو بديع يبدأ بـ"الحق" ثم "الخير" ثم "الحسن" في شكل تراتبي، وقد استعمل الجانب الإحصائي للتدليل على نظريته، يقول الحاج "يتوافق هذا مع التواتر المتعلق بالقيم في الخطاب القرآني، فمشتقات "حق" تتكرر في القرآن (٢٧٢) مرة، (منها ١٧٦ مرة بأل التعريف "الحق")، مما يجعلها الأعلى تواترا بين جميع مفردات

(١) يرجع في تفاصيل ذلك إلى: مدخل إلى الفلسفة ومشكلاتها(١٥١ – ١٥٦) مصدر سابق.

القيم في القرآن، في حين تتواتر مشتقات "خير" ١٧٤ مرة، بينها ٢٣ مرة بأل التعريف "الخير" كما تتواتر مفردة "الحسن" بمشتقاتها ١٦٥ مرة، منها بأل التعريف ١١ مرة بصيغة (الحسنة) و١٦ مرة بصيغة "الحسنى"، ومرة بصيغة "الحسنيين"، ومرتين بصيغة "الحسنات" وبذلك تتطابق دلالة الإحصاء ذات الطبيعة الموضوعية مع ما كان مجرد مقتضى عقلي لمفهوم التوحيد.

هكذا إذا بمجرد أن يؤمن المرء إيمانا حقيقيا بالتوحيد الخالص سينتظم في إطار منظومة قيمية تشكل بنية مركزها الحق وطرفاها الخير والحسن"[١]

وهذا يعني أن "القيم تتسلسل في قوتها متدرجة من "الحق" فـ "الخير" وصولا إلى "الحسن"[٢]، وهذه نظرة جيدة ربما يخالف البعض فيها زيادة أو نقصا، ولا مانع معها من ذكر جملة القيم التي ذكرها باحثون آخرون مثل قيمة (العدل – المساواة – المسئولية – الحرية – الشورى – التسامح – الإخاء – الجماعة – مرضاة الله تعالى – الصدق – توفير الضرورات – التحرر من الخوف...الخ)[٣]

وقد وصل الفلاسفة إلى شبه اتفاق بينهم على أن القيم هي (الحق والخير والجمال)[٤].

وحتى تأخذ "القيمة" ذلك الوصف لابد لها من أركان معيارية ضابطة لمعناها، وماهيتها وهي: (الحقيقة والعمومية والمساواة) بمعنى أن تكون القيمية حقيقة لا خيالا، وتتسم بسمة العموم لا الخصوص، وتنطبق على الجميع دون تمييز.

---

(١) الخطاب السياسي في القرآن السلطة والجماعة ومنظومة القيم د/ عبد الرحمن الحاج (٢٦٤)

(٢) الخطاب السياسي(٢٦٧) مصدر سابق.

(٣) انظر: الخطاب السياسي في القرآن (٢٤٩ – ٢٦٠) مصدر سابق.

(٤) مدخل إلى الفلسفة ومشكلاتها (٢٥٠). سابق.

ويستطيع الداعية صياغة أفكاره ومشروعاته الإسلامية مركزا على هذه القيم مبرزا أهميتها والحاجة إليها، وثمراتها في الوجود، مبينا خطر خلو الحياة منها، ثم يشرح للناس كيفية تحصيلها وتمثلها في الواقع، مبينا صورة البشرية عندما أدارت ظهرها لتلك القيم.

وهنا تسعف الداعية مجموعة من النصوص القرآنية والنبوية، ومواقف التاريخ (ليس شرطا الإسلامي فقط) وإنما الصفحات المشرقة من تاريخ البشرية عندما عاشت هذه القيم فهما وتطبيقا.

المطلب الثاني

وظيفة المحتوى القيمي في الخطاب الإسلامي

إن حضور جانب "القيم" في الخطاب الإسلامي له عدة وظائف أساسية في مقاصد الخطاب وتحقيق فاعليته، تتجلى في عدة جوانب:

- **الوظيفة الأخلاقية**: حيث تنعكس على واقع الفرد بضبط سلوكه، وتحسين أدائه الفردي في الحياة، ما يجعله فردا ذا علاقات فعالة وناجحة ومؤثرة في المحيط الذي يتحرك فيه، وقد لفت ظهور هذا الجانب في حياة الفرد المسلم أنظار غير المسلمين إلى المسلم بصورة دعت إلى البحث في حقيقة رسالته التى أخرجته هكذا، كما ينعكس ذلك مستوى الجماعات والأمم انعكاسا إيجابيا، حيث ينشئ حالة من السلم العام والتوافق على قواسم مشتركة من شانها أن تحدث حالة تفاعل حضاري تقلل من الصدام والحرب والدمار الذي يشهده العالم المعاصر الذي أدار ظهره للأخلاق والقيم والفضائل.

- **الوظيفة المعيارية**: فبحضور القيم في الخطاب الإسلامي وترسيخ معانيها

في نفوس المخاطبين يمتلك الفرد معيارا عدلا يتمكن به من تمييز صوابية الأمور من حوله من خطئها، والحكم على الأشياء والأشخاص والمواقف والحوادث، فتخرج أحكامه منضبطة بعيدة عن الأهواء وغير متأثرة بالتضليل الإعلامي والدجل السياسي، والأهواء الشخصية، كما تضبط علاقاته بالكون والحياة والأحياء بناء على تلك القيم التي تمثل معايير منضبطة.

- **الوظيفة الحضارية**: فالقيم الصحيحة من شأنها إحداث حالة حضارية وعمرانية في الكون، ولا يمكن ان نسمي التطور المادي المعاصر "حضارة"، وإنما هو نوع من "المدنية"، التي تمثل طورا من أطوار الحضارة وليس الحضارة بشكلها الكامل، إذ (الغالب في الحضارة أن تكون قيمية، أو مبدئية"[١] أما المدنية فتكون في الغالب مادية نفعية"[٢]، لكن عندما تقوم حضارة عمادها القيم فلا شك أننا سنكون في واقع جديد يتعارف فيه البشر ويتعاونون بدلا من التناحر الذي يذهب بكل منجز بشري مفيد، وإن كنا نجزم أن القيم وحدها ليست قاطعة للصراعات والتدافعات، فالتدافع قانون كوني، لكن القيم تخفف حدة هذه الصراعات وتكون وسيلة للعودة إلى الرشد، وتنشئ حالة من التفاهم ولو نسبيا.

- **الوظيفة الوقائية**: بمعنى حماية المجتمع البشري عامة والمجتمع الإسلامي خاصة من توجهات (اللاقيمية) التي من شأنها تدمير كل ثوابت ومقدرات وأخلاق الشعوب، بل تذهب بمعاني الإنسان وتكريمه، وتنحط به إلى المستويات الدنيا، وقد رأينا الفكر العبثي الذي يحكم على البشر بانعدام المضمون وفقدان الرؤية، وأصبح البعض ممن ينتمون إلى المدرسة العبثية المعاصرة ينتمون إلى مبادئ غريبة يتخذونها فلسفة لهم في الحياة وينادون باعتناقها.

---

(١) على عتبات الحضارة بحث في السنن وعوامل التخلق والانهيار د بتول أحمد جندية،(١٢).

(٢) على عتبات الحضارة (١٢) سابق.

وقد عبرت الموسوعة الميسرة عن هذا المنهج العبثي اللاقيمي بما يفيد أن: أن الفراغ الروحي أدى إلى انعدام المعنى والمضمون وراء السلوك الإنساني في العالم المعاصر، كما أكدت على مدى تأثر هذا التيار بآراء فرويد في علم النفس التحليلي وما فيه من إيحاءات وأحلام وخيالات وأوهام، وأنهم نتيجة الخوف والرهبة من الكون، فقدوا كل تفكير عقلاني متماسك(١)

وقد وجد الفكر العبثي رواجا في بعض الأوساط نظريا وعمليا، نتيجة لتلك الحالة التي اختفت فيها القيم أو ضعفت. وحضور القيم في خطابنا الإسلامي للبشرية عامة يحميها – بإذن الله – من هذا التوجه "اللاقيمي" الذي يكفر بكل القيم الدينية والإنسانية ويسير بلا هدف ولا ضابط(٢).

المبحث الثالث

المحتوى الفقهي (الحل والحرمة)

الفقه في الحقيقة الشرعية تعبير عن الجانب التشريعي والقانوني الحاكم لتصرفات الخلق بالحل والحرمة، وبالجواز وعدمه، من حيث هو خطاب شرعي إلهي متعلق بأفعال المكلفين، فهو المعيار الدقيق الضابط لتصرفات الناس الحاكم

(١) انظر / الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إصدار الندوة العالمية للشباب الإسلامي (٩٤٩).

(٢) رأينا العالم الغربي يشرع قوانين (لا قيمية) تتناقض مع الطبيعة الفطرية للإنسان مثل قوانين إباحة زواج المثليين التي انتشرت في دول أوربية عديدة ثم في أمريكا، وكان آخرها ما صدر يوم السبت ٢٦/ ٦/ ٢٠١٥ من المحكمة العليا في أمريكا بالسماح بزواج المثليين، وبهذه أصبح هذا النوع من الزواج مباحا في ثلاث عشرة ولاية أمريكية، وكان نص الحكم الذي أصدره القاضي الأمريكي:"أنتوني كينيدي" لحماية لحقوق المثليين،:" يجب ألا يحكم عليهم بالوحدة وأن يستبعدوا من واحدة من أقدم مؤسسات الحضارة. إنهم يطالبون بأن يحظوا بنفس الاحترام في عيون القانون. الدستور يمنحهم هذا الحق". انظر: www.almrsal.com

عليها، ومعلوم في علم الأصول أن الحكم الشرعي التكليفي ينقسم إلى خمسة أقسام هي: الواجب[١]، والمندوب[٢]، والمباح[٣]، والحرام[٤]، والمكروه[٥]، ولكل قسم منها حد ودرجات وآثار، وبالتأمل في هذه الأقسام نجد أن كل تصرفات الخلق لا تخرج من تحتها مطلقا، فكل تصرف فردي أو جماعي في أي مجال من مجالات الحياة له وصف شرعي من هذه الأوصاف الشرعية الخمسة، ولا يتصور حكم آخر غير هذه الأحكام.

ومن هذا المنطلق فإن الجانب الفقهي التشريعي له مهمة معيارية في الحياة فهو يضبط حركة المسلم على اختلاف حالات وجوده صحة ومرضا، سفرا وحضرا، فقرا وغنى، تمكنا وضعفا، حاكما ومحكوما، وهو كذلك يحدد واجباته وحقوقه، ثم ينطلق من تلك التوصيفات الفردية إلى ضبط الحياة الجماعية فيحدد للدولة أدوارا وللحاكم حدودا ومسئوليات، وكذلك يحدد التشريعات والقوانين اللازمة لضبط المؤسسات الخاصة والعامة، وفي هذا السياق لا ينبغي أن يعرض هذا الجانب في الخطاب الإسلامي في صورة السرد المجرد الخالي من الأغراض والوظيفة بل لا بد أن يقترن كل حُكمٍ بحكمته وغايته ووظيفته وآثاره في الحياة.

وثمة مسالة أخرى تتصل بموقع "الفقه" في الخطاب الإسلامي، وهي المحل أو الأرض التي تتنزل عليها تلك القوانين والأحكام والتشريعات، فهي لا تنفصل

---

(١) الواجب هو: ما طلب الشرع فعله طلبا جازما. انظر / تقريب الوصول إلى علم الأصول لابن جزي الكلبي (٢١١).

(٢) المندوب هو: ما طلب الشرع فعله طلبا غير جازم. المصدر السابق (٢١٢).

(٣) المباح هو: ما لم يطلب الشرع فعله ولا تركه. المصدر السابق (٢١٣).

(٤) الحرام هو: ما طلب الشرع تركه طلبا جازما. المصدر السابق (٢١٢).

(٥) المكروه هو: ما طلب الشرع تركه طلبا غير جازم. المصدر السابق (٢١٢).

بحال عن تصور الدعاة للفقه وكيفية تفعيله وتشغيله، فالفقه ليس كلاما ينطلق في فضاء لا أرض له، ولذا فمن الواجب في الخطاب الإسلامي أن يراعي الدعاة ثلاثة مسارات مهمة لا تنفصل وهي:

المسار الأول: فهم النص الشرعي.

المسار الثاني: إدراك الواقع الذي سيتنزل فيه الخطاب.

المسار الثالث: فقه تنزيل النص على هذا الواقع.

وقد ينجح البعض في مسار ويخفق في مسارات أخرى، وهذا سبب رئيس في كثير من الإخفاقات في مجال الدعوة وضعف تقبل الخطاب الإسلامي، حيث يشعر المخاطبون إما بكلام نظري لا واقع له، أو بمثالية الخطاب وعدم واقعيته وأنه فوق قدراتهم، وربما بحث آخرون بسبب ذلك عن أفكار وقوانين تناسب حالهم غير هذا الخطاب الفقهي الجاف الذي لا يعالج واقعهم باقتدار.

يضاف إلى هذا ضرورة أن يحاط المحتوى الفقهي بجملة من الضوابط التي تعبر في النهاية عنه خير تعبير، وقد تناولت ذلك في موضع آخر من كتاب لي، تحت عنوان (الطريقة المثلى لعرض الفقه)، قلت فيه: "ينبغي علي الداعية عند عرض الأحكام الفقهية مراعاة أمور عدة منها:

١- العناية بروح الأحكام وبيان أسرارها وآثارها.

٢- التفريق بين تعليم العوام وبين تعليم طلاب العلم.

٣- مراعاة التيسير ورفع الحرج.

٤- مراعاة درجات ومراتب الأحكام والأعمال.

٥- العناية بمراجعة فتاوى العلماء.

٦- عدم الإسهاب في التعريفات والحدود.

٧- عدم المبالغة في توضيح الواضحات والاستدلال للقطعيات.

٨- مراعاة الواقع وعدم فصل الفقه عن الواقع"[(١)].

وخلاصة المسألة: أن الفقه لا يعرض وحده بعيدا عن شبكة مهمة لابد أن تحيط به من فقه للواقع، ومراعاة للمقاصد، ورعاية للأولويات، مع بيان وظيفة هذه القوانين الفقهية وآثارها في الحياة، وبيان أسرارها وروحها في ضوء روح التيسير والتبشير، بعيدا عن التنطع والتشديد.

المطلب الثاني

الجانب الوظيفي للمحتوى الفقهي في الخطاب الإسلامي

أشرت آنفا بإيجاز إلى شيء من الأدوار الوظيفية للجانب الفقهي، وهذا طرف من زيادة البيان فيها:

الوظيفة التشريعية القانونية: فلابد لكل مجتمع من قانون حاكم، والقانون في الإسلام هو شريعة الله تعالى، وكل تشريع غير تشريع الله لا أحقية له في الهيمنة على الناس في جانب الحكم، ولذا فإن الوظيفة الكبرى للفقه الإسلامي هي إبقاء الناس تحت حكم الله تعالى، انطلاقا من التوحيد والإيمان بحاكميته تعالى، وهو ما نسميه (الالتزام الديني) من حيث خضوع الناس لصاحب الشرع وحده، فهو صاحب الحق في التشريع ووضع القوانين التي تحكم حياتهم وفق مراده، ولا تخلو نازلة تنزل بالمسلمين في أي وقت ولا زمن إلا ولله تعالى فيها حكم وقد قال الشافعي في الرسالة: "**فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا في كتاب الله**

(١) محاضرات في فقه الدعوة إلى الله تعالى د/ احمد زايد ص (٧٣).

الدليل على سبيل الهدى فيها"[١] ومن هنا فلا يسع المسلمين التحول عن حكم الله وقانونه إلى غيره.

الوظيفة المصلحية: وبالخضوع للجانب القانوني التشريعي (الوظيفة السابقة) تأتي الوظيفة (المصلحية)، فقد اتفق المسلمون على أن للإسلام مقاصد عليا تتمثل في (حفظ مصالح الخلق في العاجل والآجل)، ويعد (الجانب الفقهي) من أهم الجوانب التي تسهم بفاعلية في تحقيق ذلك، فمن شأنه تنظيم الحياة، وتحديد مقاطع الحقوق وأقدار الواجبات بصورة تمنع تهارج الخلق واعتداءاتهم وتحد من أطماعهم وشرورهم، وفق قوانين رادعة وضوابط حاكمة، وبذلك تندفع المفاسد وتتحقق المصالح.

الوظيفة العمرانية والحضارية: فلم يقتصر الفقه الإسلامي على جوانب الطهارات العبادة الفردية أو الجماعية وإنما هو قانون ينتظم أفاق الحياة وجوانبها ويشرع لها، من أبرز تلك الجوانب الجانب العمراني الذي هو أحد أهم الجوانب الحضارية للأمة، سواء فقه عمران المدن، وتشييد المجتمعات، وبناء المساجد، وفنون العمارة، وبناء المساكن والأسواق وكافة المنشآت في الدولة الإسلامية، واتصال كل ذلك بالفلسفة الإسلامية والثقافة الإسلامية التي يعبر عنها هذا النوع من الفقه، لقد كان هذا الفقه العمراني ولا يزال جديرا بأن يقوم بدور حيوي في الحفاظ على حضارة الأمة وهويتها من خلال تعبيراته العمرانية وتشريعاته الخاصة.

---

(١) الرسالة للإمام الشافعي،(١٢٤).

المبحث الرابع

المحتوى المقاصدي في الخطاب الإسلامي

تناولنا المضمون الفقهي وأهميته في بنية الخطاب الإسلامي، ولكي يتحقق التوازن في هذا الخطاب لابد من التكامل بين الفقه وأسراره، وبين الأحكام ومقاصدها، وبين التوجيهات وغاياتها، ومن هنا كان الحديث في المضمون المقاصدي، و(المقاصد) جانبا مهما في علم الأصول، وقد نادى البعض بجعله علما مستقلا كما نادى بذلك الشيخ ابن عاشور الذي يعرف المقاصد بأنها: "مقاصد التشريع العامة هي: المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة"(١) وبعبارة أوجز يعرفها علال الفاسي بقوله: "الغاية منها والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها"(٢).

ولها تعريفات أخرى متقاربة، وتنقسم إلى مقاصد عامة وخاصة وجزئية، ولكل نوع منها مجال وسمات وعمل ليس المقام مقام تفصيلها.

وحتى تطمئن القلوب لمضمون الخطاب الإسلامي بل لأحقية هذا الدين لابد من صياغة الخطاب صياغة متينة تبعث على تلك الطمأنينة، فالإنسان بطبعه يبحث عن التعليلات وما وراء الأشياء، وتطمئن نفسه متى عرف مقصد عمله وغاية حركته، والذي يحقق هذا المعنى هو الجانب المقاصدي، ولكي نصل إلى ذلك لابد من حضور المعاني التالية باعتبارها مضامين معرفية:

١- إبراز خصائص الإسلام التي انفرد بها عن كافة الأديان والأفكار والنحل.

---

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية محمد الطاهر بن عاشور (١٨٣).

(٢) مقاصد الشريعة ومكارمها، علال الفاسي (٣).

٢- التركيز على بيان محاسن الإسلام ومزاياه، لنفي تلك الصور السيئة التي تركها المسلمون عن الإسلام في نفوس الآخرين من خلال تصرفات بعضهم أو بسبب وضعهم الآني بين أمم الأرض.

٣- تجلية مفهوم المصالح والمفاسد الدنيوية والآخروية بحيث يدرك المخاطبون أن مصالحهم الدنيوية والآخروية لا تتحقق بشكل صحيح إلا في ظل الإسلام، وأن المفاسد التي يرهبونها ويقلقون منها حاضرا ومستقبلا لا يمكن أن تندفع عنهم إلا باتباع هذا الدين الذي لتحقيق المصالح ودرء المفاسد.

٤- التركيز على الدراسات المقارنة وبخاصة في (مجال الأديان)، فمن أبرز المداخل الإسلامية اليوم التي تزيد المؤمن إيمانا، وتنقل الكثير من غير المسلمين إلى بستان الإسلام تلك الدراسات المقارنة بين الأديان، وقد نشط المسلمون قديما وكانت إسهاماتهم بارزة جلية، لكنهم قصروا كثيرا اليوم على الرغم من تخصيص أقسام علمية في كثير من الكليات الشرعية تحت اسم "مقارنة الأديان".

٥- التركيز على جانب (الإعجاز العلمي) وهو مكمل لجانب (مقارنة الأديان) في مخاطبة غير المسلمين بلغة العلم التي يفهمونها، والتي تعد من أقوى الجوانب التي يمكن للدعاة الاستفادة منها لو أحسنوا فهمها وعرضها.

٦- إحياء فقه "اعتبار المآلات" فهو فقه يخدم المحتوى المقاصدي بل هو أحد أركانه وأسسه، يضبط المسلمون به تصرفاتهم، سواء كانوا علماء أو حكاما أو مختصين في أي جانب، أم حتى العوام.

وقد عرفنا ذلك من سيرة النبي ﷺ عندما كان يترك أشياء تقديرا لصورة الدعوة في نفوس الآخرين، من ذلك: موقفه ﷺ حين بلغه ما قاله عبد الله بن أبي سلول في غزوة بني المصطلق: " والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل"، فنقل ذلك إليه زيد بن أرقم، فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا

المنافق، فقال النبي ﷺ: "دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه" ولم يكن يخفى على رسول الله ﷺ نفاق عبد الله بن أُبي سلول وكونه نفاق كفر مخرج من الملة، ولو قتله لكان محقا في ذلك لكنه قدَّر نظرة الناس الذي لا يعرفون تلك التفاصيل التي يفرقون بها بين المنافقين والمؤمنين، فلا يرون المسلمين حينئذ إلا متهاجرين متقاتلين، فلا يجدون ما يغريهم باللحوق بهذه الأمة المتقاتلة؟.

٧- التركيز على المقاصد الإسلامية في المجال الإنساني ومنها:

- التعارف والتعاون والتكامل بين بني البشر.
- تحقيق الخلافة العامة للإنسان في الكون وبيان مهمته التي هي عمارة الكون وعبادة الله.
- تحقيق السلام العالمي القائم على العدل ودفع الظلم.
- حماية حقوق الإنسان دون نظر إلى جنسه أو لونه.

المطلب الثاني

وظيفة المحتوى المقاصدي في الخطاب الإسلامي:

للمحتوى المقاصدي جملة من الوظائف التي تمنح الخطاب الإسلامي حيوية وتأثيرا، منها:

١ - أن فهم المقاصد ومراعاتها يمكن الداعية من إبراز كمال التشريع الإسلامي من كونه دينا إلهيا تقوم تشريعاته على حكم بالغة، وأسرار باهرة، وإبراز هذا الجانب من التشريع يعد من الخطوط الرئيسة في الخطاب الإسلامي، خاصة في هذا الزمان الذي يحاول فيه الأعداء بكل قوة انتقاص هذا الدين، وتشويه صورته، ومن هنا فإن مراعاة المقاصد والحديث عن أسرار التشريع، له دور كبير في بعث الثقة في نفوس المسلمين ليزدادوا ثقة في دينهم وتسليما له، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

"إن النفس مجبولة على التسليم للحكم الذي عرفت علته".[١]

٢ – فهم المقاصد خير سبيل للتفقه في الدين بل هو ضابط أساس في هذا الباب، ولا نبالغ إن قلنا إنه الطريق المضمون لصحة وسلامة الفهم في الشرع ولهذا يقول ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فنحن إذا أردنا أصولا قطعية للتفقه في الدين حق علينا أن نعمد إلى مسائل أصول الفقه المتعارفة، وأن نعيد ذوبها في بوتقة التدوين، ونعيرها بمعيار النظر والنقد، فننفي عنها الأجزاء الغريبة التي علقت بها[٢]، ونضع فيها أشرف معادن مدارك الفقه والنظر، ثم نعيد صوغ ذلك العلم ونسميه علم مقاصد الشريعة"[٣] فأنت تراه هنا جعل إدراك المقاصد كعلم وفن من الأصول القطعية للتفقه في الدين، ولهذا رأيناه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعنون بهذا العنوان "احتياج الفقيه إلى معرفة مقاصد الشريعة" وموجز ما قال: إن تصرف المجتهدين بفقههم في الشريعة يقع على خمسة أنحاء:

- فهم أقوالها، واستفادة مدلولات تلك الأقوال بحسب الاستعمال اللغوي وبحسب النقل الشرعي، بالقواعد اللفظية التي بها عمل الاستدلال الفقهي.
- البحث عما يعارض الأدلة التي لاحت للمجتهد ليستيقن أنها سالمة مما يبطل دلالتها، حينئذ يعمل دليله، وإلا نظر كيف يعمل بالدليلين معا، أو يرجح أحدهما على الآخر.
- قياس ما لم يرد حكمه على ما ورد حكمه بعد معرفة العلل الثابتة بطرق مسالك العلة.

---

(١) شفاء العليل (٣٤٧).

(٢) تعلقت بها

(٣) مقاصد الشريعة الإسلامية (١٢٢)ز

- إعطاء حكم لفعل أو حادث حدث للناس لا يعرف حكمه فيما لاح للمجتهدين من أدلة الشريعة، ولا نظير يقاس عليه.
- تلقي بعض أحكام الشريعة الثابتة عنده تلقي من لم يعرف علل أحكامها ولا حكمة الشريعة في تشريعها، ويسمى هذا الجانب بالتعبدي، فالفقيه بحاجة إلى معرفة مقاصد الشريعة في هذه الأنحاء كلها، وفصل رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجه حاجة العالم والداعية والفقيه والمجتهد إلى علم المقاصد في كل هذه الجوانب، وعقب على ذلك بقوله: "وبعد هذا فالفقيه محتاج إلى معرفة مقاصد الشريعة في قبول الآثار من السنة، وفي الاعتبار بأقوال الصحابة والسلف من الفقهاء، وفي تصاريف الاستدلال"[١] وبعد هذا نقول إن: "كليات الشريعة ومقاصدها العامة هي أصول قطعية لكل اجتهاد، ولكل تفكير إسلامي، فلا بد من إعادة الاعتبار إليها، ولا بد من وضعها في المقام الأول، ثم يرتب ما عداها عليها، وهذه خطوة ضرورية لإعادة تشكيل العقل المسلم ولإعادة ترتيب موازينه وأولوياته".[٢]

٣ – عون الخطيب والداعية والمدرس والقاضي والمفتي والمرشد والحاكم وغيرهم على أداء وظائفهم وأعمالهم على وفق مراد الشارع، ومقصود الأمر والنهي، وليس على حرفيات النصوص وظواهر الخطاب ومباني الألفاظ.[٣]

٤ – الحد والتقليل من النزاعات الفكرية بين المسلمين، خاصة النزاعات الفقهية والتعصب المذهبي،...ولهذا المعنى وضع ابن عاشور كتابه في المقاصد وقال عنه في المقدمة: "هذا كتاب قصدت منه إلى إملاء مباحث جليلة في علم

---

(١) السابق (١٣١ – ١٣٥).

(٢) نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي للريسوني (٤).

(٣) علم مقاصد الشريعة للخادمي (٥٢).

مقاصد الشريعة الإسلامية، والتمثيل لها، والاحتجاج لإثباتها، لتكون نبراسا للمتفقهين في الدين، ومرجعا بينهم عند اختلاف الأنظار وتبدل الأعصار، وتوسلا إلى إقلال الاختلاف بين فقهاء الأمصار، ودربة لأتباعهم على الإنصاف في ترجيح بعض الأقوال على بعض عند تطاير شرر الخلاف، حتى يستتب بذلك ما أردناه غير مرة من نبذ التعصب والفيئة إلى الحق. إذاً كان القصد إغاثة المسلمين ببلالة[١] تشريع مصالحهم الطارئة متى نزلت الحوادث واشتبكت النوازل، وبفصل من القول إذا اشتجرت حجج المذاهب، وتبارت في مناظرتها تلكم المقانب[٢] دعاني إلى صرف الهمة إليه ما رأيت من عسر الاحتجاج بين المختلفين في مسائل الشريعة، إذ كانوا لا ينتهون في حجاجهم إلى أدلة ضرورية أو قريبة منها يذعن إليها المكابر، ويهتدي بها المشبَّه عليه".[٣]

٥ – عون المكلف على القيام بالتكليف، وتحقيق الامتثال للشرع على أحسن الوجوه وأتمها، فلا يجد الهوى إليه سبيلا فيوقع الأحكام خالصة لربه لا مدخل لهواه فيها، فيحرص حينئذ على تحقيق مقاصد كل عبادة يقوم بها، يعيش أسرارها وحكمها وروحها بدلا من الوقوف مع ظواهرها فقط، وهذا لا شك قيام في مقام العبودية الحقة، وهو المقام الذي أراده الله تعالى من شرعه الحكيم، يقول الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبدا لله اختيارا، كما هو عبد له اضطرارا "ثم قال بعد قليل: "قصد

(١) البُلالة: الندى. المعجم الوجيز (٧٠) إصدار مجمع اللغة العربية.

(٢) المقانب: اسم جماعة كثيرة من الفرسان، وهو هنا مستعار لجماعات العلماء، كما يستعار الفارس للعالم الفائق.

(٣) مقاصد الشريعة (١١٧).

الشارع الخروج عن اتباع الهوى، والدخول تحت التعبد للمولى".[١]

٦ – إن مراعاة المقاصد وإدراكها يفيد الدعاة والفقهاء وكل ناظر في الشريعة معرفة بمراتب الأعمال والأحكام، وينتج لديه ما يسمى بفقه الأولويات، ولا شك أن هذا ضروري عند الموازنة بين الأعمال، وخاصة عند تزاحمها، وهذا لا شك علاج لمشكلة حاضرة في الواقع الفكري الإسلامي المعاصر، حيث أختلت كثير من الموازين، فاهتم الناس بالشكل عن الجوهر، وبالرسوم والألفاظ عن المعاني والمقاصد، وبالمصلحة الفردية عن المصلحة العامة، وبالآخر عن النفس، وبسبب ذلك ضخمت الجزئيات وتقلصت الكليات، وهذا كله يمثل داء عضالا سببه التغافل عن المقاصد أو الغفلة عنها مع أسباب أخرى أصابت العقل المسلم، ومن هنا رأينا علماءنا الكبار ينبهون على ضرورة مراعاة المقاصد إذ بها تعرف المراتب في المصالح وفي الأمر والنهي، فلقد قرر الشاطبي رحمه الله تعالى أن النوع الأول من المقاصد هو قصد الشارع في وضع الشريعة، وبين أن الشريعة إنما وضعت لحفظ مصالح العباد في الدارين بحفظ الضروريات والحاجيات والتحسينات، ثم نبه على ضرورة مراعاة مراتبها، وفي هذا ضبط للحياة الإسلامية وهذا دور الداعية الفقيه ومهمته في الخطاب الإسلامي المعاصر

٧ – ضبط تنزيل الأحكام على الواقع من غير خلل ولا شطط، فعلم المقاصد يعين الداعية الفقيه في تعليمه وفتواه على ضبط الفتوى وربط الفروع بالقواعد الكلية والمقاصد العامة للدين. وبهذا يضاف إلى الداعية الفقيه ذلك الحس الإنساني والبعد الاجتماعي القادر على فهم حاجات الناس بناء على فهم واقعهم، والمواءمة بين تلك الحاجيات وبين قواعد الشرع دون تعارض أو تضاد.

---

(١) الموافقات (٢/ ١١٤).

٨ – التمكن من إعطاء الأحكام لكل فعل أو حدث يقع للناس ليس له نظير يقاس عليه، ولم يهتد إليه المجتهدون قبل، وفي هذا يقول ابن عاشور: "إن احتياج الفقيه إلى المقاصد ظاهر، وهو الكفيل بدوام أحكام الشريعة الإسلامية للعصور والأجيال التي أتت بعد عصر الشارع، التي تأتي إلى انقضاء الدنيا، وفي هذا الجانب قال الإمام مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بالمصالح المرسلة، وفيه أيضا قال الأئمة بمراعاة الكليات الشرعية الضرورية، وألحقوا بها الحاجية والتحسينية، وسموا الجميع بالمناسب. وفي هذا النحو هرع أهل الرأي إلى إعمال الرأي والاستحسان"(١) وفي هذا المعنى يقول أبو حامد الغزالي: "كل معنى مناسب للحكم مطرد في أحكام الشرع لا يرده أصل مقطوع به مقدم عليه من كتاب أو سنة، أو إجماع فهو مقول به، وإن لم يشهد له أصل معين".(٢)

وأوضح من ذلك يقول الشاطبي: "كل أصل شرعي لم يشهد له نص معين، وكان ملائما لتصرفات الشرع ومأخوذا معناه من أدلته فهو صحيح يبنى عليه ويرجع إليه، إذا كان ذلك الأصل قد صار بمجموع أدلته مقطوعا به"(٣) فأنت ترى هنا أئمة الإسلام يجعلون مراعاة المقاصد واعتبارها مدخلا مهما في ضبط حركة الحياة وفق مراد الشارع فيما لم يأت فيه نص أو إجماع، ولا شك أن هذا يحقق مرونة الشريعة ويثبت صلاحيتها وقدرتها البالغة على استيعاب كل جديد في حياة الناس.

٩ – التمكن من تقدير المآلات وضبط الأفعال الآنية بالنظر إلى مآلاتها وفقا لموافقتها للشرع أو مخالفتها إياه، ومن هنا يتمكن للداعية في خطابه الإسلامي

---

(١) انظر / مقاصد الشريعة لابن عاشور(١٣١ – ١٣٢).

(٢) المنخول للغزالي(٣٦٤).

(٣) الموافقات (٢/).

وتوجيهه التربوي أن يعرف محل خطابه وإفتائه، وعواقب حكمه وكلامه، ويعرف مواطن سد الذرائع المفضية إلى حرام وفساد، فلا يطلق كلامه ارتجالا من دون استحضار مآله وآثاره وفي ذلك يقول الشاطبي: "النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعا، كانت الأفعال موافقة أو مخالفة، وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو الإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل"(١)، ويصف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الفقيه المجتهد المربي بأنه "ناظر في المآلات قبل الجواب عن السؤالات"(٢) ومن هنا فالداعية بالنظر في المقاصد يراعي المآلات بحيث يراعي مواقع كلامه في الجمهور، فيسد على المتحيلين سبل الحيل، ويسد الذرائع المفضية إلى فساد وعطب، ومن هنا تتوافق أفعال الناس مع مراد الشرع الحكيم.

١٠ – التمكن من تقرير خصائص الشريعة الكبرى، وإبراز أوصافها العظمى، كالسماحة التي هي أكبر مقاصد الشرع كما قال ابن عاشور، والعموم، والخاتمية، والمساواة وغير ذلك من الخصائص التي ينبغي على الدعاة تقريرها وإبرازها(٣).

١١ – دفع الفقه إلى التقدم والتطور والتجدد ومواكبة العصور المختلفة بكل مستجداتها، وإخراجه من جموده، ذلك أن من أكبر أسباب تخلف الفقه في بعض العصور، إهمال النظر في المقاصد والوقوف عند الظواهر والحرفيات، والعناية بالفروع والجزئيات دون النظر في القواعد والكليات، واليوم ومع كثرة ما جد في الحياة المعاصرة يكون النظر في المقاصد من ألزم شروط التجديد في الحركة الفقيه،

---

(١) الموافقات (٤/ ١٩٦).

(٢) السابق (٤/ ٢٣٢).

(٣) مقاصد الشريعة لابن عاشور(١١٧).

ولا يكون ذلك إلا من فقيه عالم بنصوص الشرع، بصير بأحكامه، وليس هذا الأمر مرتعا لكل من هب ودب تحت دعوى تجديد الفقه"[١].

المبحث الخامس

المحتوى السنني في الخطاب الإسلامي

إن قضية السنن الإلهية في حياة وحركة الأفراد والأمم والجماعات والكون من القضايا المركزية في الإسلام كوحي منزل معصوم، وهي كذلك فكرة محورية في الفكر الإسلامي التراثي، ومع ذلك نلاحظ أنها ضعيفة الحضور في الفكر الإسلامي المعاصر سواء على مستوى التنظير والتأصيل أم على مستوى الخطاب والتوجيه.

وأقصد بالسنن: "جملة القوانين الإلهية التي تحكم سير البشر والحياة باطراد وثبات دون تخلف أو محاباة"

إن الجماهير التي نخاطبها مسلمة كانت أو غير مسلمة من حقها أن تتعلم قوانين وجودها، وسنن بقائها أو فنائها، ونظام سعادتها أو شقائها، ونواميس تحضرها أو تخلفها، ومن نقاط ضعف خطابنا الإسلامي المعاصر خلوه غالبا من هذا الجانب الفكري الذي يمثل مطلبا دعويا هاما.

يظهر ذلك واقعيا في جملة من المظاهر منها:

١) وقوف الأمة عاجزة عن تفسير العلل الصحيحة والدقيقة عن مأزقها الراهن والسقوط في تأويلات بعيدة تماما عن الأسباب الحقيقية لهذا المأزق.

٢) عجز الأمة عن تقديم إجابات شافية عن كيفية النهوض الحضاري والخروج من المأزق.

---

(١) محاضرات في فقه الدعوة إلى الله تعالى للباحث (ص ١١٠ - ١١٧

٣) الانتقال من فشل إلى فشل ومن مازق إلى مأزق في حركة الأمة بل البشرية ولو في بعض الجوانب.

٤) التخلف الواضح في الأخذ بالأسباب واستدعاء معاني القضاء والقدر والاحتجاج بها دون معاني الحركة والعمل وبذل الجهد.

٥) انبهار المسلمين بالفعل المادي الغربي في جوانب عديدة، والغفلة عن الأسباب الكامنة وراء وجوده، والإقبال على استهلاك المنتج الغربي والذهول عن إنتاج مثله.

٦) اجترار القديم وضعف الاجتهاد والتجديد، والتغافل عن التطوير والخوف من النقد ومكاشفة الذات.

نماذج من السنن الربانية:

المتتبع لنصوص الوحيين القرآن والسنة يقف على جملة من القوانين والسنن، وهي التي يجب أن نعلم الناس إياها ونلفت انظارهم إلى مراعاتها واستخدامها وعدم مصادمتها من هذه السنن:

١) سنن النهوض والسقوط الحضاري.

٢) سنن الله تعالى في الإبقاء والإهلاك، وسنته في الأسباب والمسببات.

٣) سنن الله تعالى في النصر والهزيمة.

٤) سنن الله تعالى في العطاء والمنع، وفي القلة والكثرة، وسنته سبحانه في الهداية والضلال.

٥) سنن الله تعالى في المؤمنين وفي الكافرين.

٦) سننه سبحانه في التغيير.

٧) سننه سبحانه في الإصلاح والإفساد وفي المصلحين والمفسدين.

٨) سنته سبحانه في الظلم والظالمين، وسنته في الترف والمترفين وفي المكر والماكرين.

٩) وسنته تعالى في الرزق[١].

إلى غير ذلك من السنن الكثيرة سواء ما كان منها في الأفراد أو الأمم أو الجماعات. إن الوعي بالسنن هو الوعي بالحياة، وهو جزء رئيس في فهم الإسلام، كما هو دافع لترشيد الحركة والفعل الإنساني الفردي والجماعي وصولا إلى الحالة الحضارية التي يرضاها الله تعالى.

المطلب الثاني
وظيفة المحتوى السنني في الخطاب الإسلامي

إن المحتوى السنني هو أحد عناصر الرشاد الفكري والسلوكي للأمة المسلمة، وللبشر عموما، كما أنه جزء من الوحي الإلهي (القرآن والسنة) ينبغي إحياؤه في الخطاب الإسلامي لخطورة أثره في الحياة على كل المستويات، نهوضا وسقوطا، فقرا وغنى، انتصارا وهزيمة، بقاء وفناء، وهكذا، يقول عبد الكريم زيدان في هذا المعنى: "إن معرفة سنن الله جزء من معرفة الدين أو معرفة لجزء من الدين، وإن هذه المعرفة ضرورية، ومن الواجبات الدينية لأنها تبصر بكيفية السلوك الصحيح في الحياة، حتى لا نقع في الخطأ والعثار والغرور والأماني الكاذبة، وبذلك ننجو مما حذرنا الله منه، ونظفر بما وعدنا الله به عباده المؤمنين المتقين"[٢].

ويقول في فوائد دراسة السنن والوعي بها إن في ذلك دعوة المسلمين "إلى

---

(١) انظر في السنن كتاب السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية د / عبد الكريم زيدان.

(٢) السنن الإلهية (١٦).

فحص نفوسهم وصفاتهم وأحوالهم وما هم عليه كأفراد وأمم أو دول أو جماعات في ضوء سنن الله التي بينها لنا، وليعلموا يقينا أن ما هم عليه مما يحزن المحب ويسر له العدو، وما أصابهم وما حل في ديارهم، لم يحدث شيء من ذلك قط (صدفة) أو خبط عشواء، بل كان نتيجة حتمية لما فعلوه أو قصروا في فعله أو تسببوا في فعله او التقصير فيه... وليعلموا أيضا على وجه اليقين أن الخلاص من الحالة السيئة التي هم عليها لا يكون أبدا إلا باتباع ما تقضي به سنن الله تعالى، وليس باتباع غيرها أو باتباع ما يناقضها"(١).

إذا للمحتوى السنني وظيفة أساسية في الخطاب الإسلامي يمكن إبرازها فيما يأتي:

١- **الإعانة على فهم الإسلام ذاته:** إذ السنن الإلهية جزء كبير في الإسلام، فمن تتبعها في نصوص الوحيين وجد كما هائلا منها، وقد اعتبر أبو حامد الغزالي "علم السنن" من العلوم المحمودة التي بها تحصل سعادة الدنيا والآخرة، قائلا: " وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء، فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وسنته في خلقه وحكمته في ترتيب الاخرة على الدنيا، فإن هذا علم مطلوب لذاته وللتوصل به إلى سعادة الآخرة"(٢). وقد هجر المسلمون حينا من الدهر دراسة هذا العلم وغفلوا عن أهميته في حياتهم وحركتهم، فناموا في حين استيقظت الأمم، وتأخروا في حين نهض غيرهم وتقدم، ولذا نبه الإمام محمد عبده على ضرورة توفر جماعة من العلماء يلقنون الأمة هذا العلم ويفعلونه في حياتهم كما فعلوا في سائر العلوم الشرعية فقال: " إن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سننا يوجب علينا أن

---

(١) السابق(١٧).

(٢) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي (١/ ٦١ - ٦٢).

نجعل هذه السنن علما من العلوم المدونة لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال وقد بينها العلماء بالتفصيل عملا بإرشاده، كالتوحيد والأصول والفقه. والعلم بسنن الله – تعالى – من أهم العلوم وأنفعها"(١).

٢- **إعانة المسلم على فهم قوانين الحياة، ومتغيراتها**، وإعطائه معايير تفسير لحركة الحياة، وإيقافه على واجباته في رحلة حياته، وبيان كيف يكون عنصرا فاعلا في بناء الأمة، بعيدا عن فكر الإرجاء والتواكل، وكذا إمداد المجموعة البشرية من المسلمين وغير المسلمين بوعي ورشاد يتجنبون به حالات السقوط الذي من شأنه تدمير حياتهم وإدخالهم في صراعات لا طائل من ورائها.

٣- **وضع الأمة في سلم الفعل الحضاري**: ولن يكون ذلك إلا بامتلاك ناصية الفعل لا رد الفعل، والفعل الأول لإقامة الحضارة: تحقيق العدل ومقاومة الظلم، والأخذ بالأسباب الإيمانية والمادية، ثم الحفاظ على المنتج الحضاري وحمايته، ومثل هذا الفقه لا يوجد إلا في ظل خطاب سنني هادف.

٤- **الحفاظ على طاقات الأمة الروحية والمادية والبشرية** من الإهدار وتوظيفها توظيفا إيجابيا فعالا، وذلك أن سير الأمة اليوم بعيدا عن المنطلقات السننية يجعلها تهدر كثيرا من أموالها وجهودها، بل تقذف بأبنائها في مغامرات غير محسوبة، بسبب إهمال القوانين الإلهية حيث "لا يختلف إهمال قوانين سير الحضارات نشأة واكتمالا وديمومة ونتائج عن إهمال قوانين سير المركبات العادية (السيارات)، وإذا كان الإهمال الثاني سببًا في ضحايا الطرقات وتضييع الطاقات

---

(١) تفسير القرآن الحكيم المسمى تفسير المنار للإمام محمد عبده تأليف/ محمد رشيد رضا (٤/ ١٦٤).

المادية والمعنوية، فإن لإهمال الأول نتائج وخيمة على حاضر الأمة ومستقبلها، بل يُعَد إهمال الثقافة السننية في شعاب الحياة، أشنع وأفظع من أثر حوادث السير العادي على الأرواح والممتلكات"[١].

٥- **تأهيل الأمة لاستشراف المستقبل**: ففقه السنن الإلهية عامل مركزي في صناعة العقلية القادرة على استشراف المستقبل والاستعداد له، والخطاب الإسلامي كفيل بتوجيه العقل المسلم إلى هذا المسلك الذي هو من أضعف الحلقات الفكرية في واقع الأمة اليوم.

٦- **تفعيل العقل للقيام بوظيفته العليا** وهو التفكير والتأمل في جانب مهم من جوانب الدين والحياة معا وهو جانب السنن، وقد عاب الله تعالى الذين يرون الآيات ثم يمرون عليها وهم معرضون فقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[٢].

والله تعالى أعلى وأعلم، وأعز وأحكم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم والحمد لله أولا وآخرا.

---

(١) مجلة حراء،مقال د/ عمار جيدل بعنوان: (الثقافة السننية وصناعة المستقبل) العدد ٢٤ / السنة السادسة / (مايو – يونيو) ٢٠١١.

(٢) يوسف: ١٠٥.

الخاتمة

وخلاصة القول في هذه الخاتمة أن خطابنا الإسلامي المعاصر به علل عديدة من أهمها ضعف التكامل بين أجزائه، مع طغيان جوانب فيه على أخرى، ثم ضعف في توظيف المعاني لتتحول إلى جوانب عملية تطبيقية ملموسة، ولذا يتحتم على كل ممارس للعمل الدعوي أن يحقق التكامل المعرفي في نفسه فيجمع إلى الوعظ الفقه، وإلى الفقه المقاصد، وإلى المقاصد القيم، وإلى كل ذلك الوعي بالسنن والقوانين الإلهية.

كما يلزم المؤسسات الدعوية المعنية بتخريج الدعاة ان تبني مناهجها على هذا التكامل والشمول والتنوع، وأن توجه الدعاة إلى حسن توظيف المعارف وتحويل المعاني إلى صور عملية ملموسة.

أهم النتائج:

١- بنية الخطاب الإسلامي في أصلها المنزَّل، بنية متكاملة لا تقوم على صنف معرفي واحد وإنما تتركب من خمسة مضامين معرفية كبرى هي: (الهداية والفقه والقيم والمقاصد والسنن).

٢- لكل مضمون من هذه المضامين وظيفة ينبغي رعايتها وتفعيلها، فمضمون "الهداية" وظيفته دلالة الخلق إلى غايتهم التي خلقوا من أجلها، ووظيفته المضمون الفقهي ضبط الفعل البشري ضبطا قانونيا وتشريعيا وفق مراد الله تعالى، ووظيفة المضمون القيمي ضبط منهجية التمييز والاختيار والتفكير بمعيار ثابت يتمكن به المكلف من الحكم على الأشياء والمواقف والأفكار والأشخاص، كما تتمثل وظيفة المضمون المقاصدي في إدراك البعد الفلسفي للإسلام للوقوف على روحه وأسراره، أما المضمون السنني فهو مادة الفهم الواعي للحياة وحركتها

وكيفيات البقاء فيها بين الأمم بقوة وفاعلية.

٣- لكل محتوى من محتويات الخطاب الدعوي متطلبات لتحقيقه وإقامته في واقع الحياة، فالهداية تتطلب "الرحمة" و"اللطف"، والفقه يتطلب حسن تصور لمادته، وإدراك الواقع الذي سيتنزل فيه، وصوابية التنزيل، مع توفر روح التيسير والتبشير، وأبرز متطلبات "القيم" توفر القدوة الفردية والجماعية، كما يتطلب المضمون المقاصدي "الفهم العميق للإسلام" وإدراك محاسنه وفهم أسراره، مع القدرة عن التعبير عنها بمنهج منضبط، كما كانت استقراء الوحي بشقية القرآني والنبوي أبرز متطلبات المضمون السنني.

٤- ضرورة تقديم الإسلام بصورة متوازنة متكاملة بعيدة عن التجزئة والتبعيض.

٥- علم "مقارنة الأديان" و"الإعجاز العلمي" يعدان من أهم العلوم المطلوبة في الخطاب الإسلامي متى قدمناهما بصورة مؤصلة منضبطة، فهما يعبران عن لغة (العلم والعقل والتحقيق) التي هي لغة العصر.

٦- ضرورة التركيز على الجانب الوظيفي للمفاهيم والقضايا الإسلامية.

٧- السبيل الحق إلى تفعيل كل ما سبق العلم الراسخ، والإخلاص مع الجد والدأب.

التوصيات:

- تنبي المؤسسات العلمية الأكاديمية المختصة بتخريج الدعاة منهجا علميا متكاملا في إعداد وتأهيل وتدريب الدعاة، والتأكيد على ضرورة إدراك التكامل المعرفي في صياغة الخطاب الإسلامي.

- الحذر من "علمنة الخطاب الإسلامي" بأيدي وأصوات إسلامية، التي تتم

الآن من خلال تغليب الجانب الوعظي على ما سواه من الجوانب الإسلامية الأخرى.

- ضرورة أن يتابع الدعاة الواقع بصورة دقيقة، لإدراك متغيراته ومتطلبات هذه المتغيرات من مادة توجيهية مناسبة تجيب عن تساؤلاته، وتلبي تطلعاته بالإسلام.

- من المناسب جدا أن تؤلف الكتب والموسوعات في المواد العلمية المتكاملة التي يمكن أن يستأنس بها الدعاة في إعداد الخطب والمحاضرات والدروس، وكتابة المقالات وتقديم الاستشارات.

- الانتقال في معالجة قضايا الدعوة على المستوى الأكاديمي في الجامعات والمؤتمرات من مجرد توصيف المشكلات والتحديات إلى تقديم الحلول العملية التي من شأنها النهوض بالدعاة نهوضا مباشرا.

المراجع

١. أبجديات البحث في العلوم الشرعية محاولة في التأصيل المنهجي، فريد الأنصاري، ط الأولى، الدار البيضاء، ١٩٩٧م.

٢. إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار إحياء التراث، القاهرة، بدون.

٣. الإعجاز العددي للقرآن الكريم عبدالرازق نوفل، ط الخامسة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٧م.

٤. الفتح الرباني والفيض الرحماني، عبدالقادر الجيلاني، ط الأولى – كولونيا – ألمانيا ٢٠٠٧م.

٥. تفسير القرآن الحكيم المسمى تفسير المنار، الإمام محمد عبده، تأليف / محمد رشيد رضا، ط الهيئة المصرية للكتاب، مصر ١٩٩٠م

٦. تقريب الوصول إلى علم الأصول لابن جزي الكلبي، تحقيق: محمد المختار الشنقيطي، ط الثانية ٢٠٠٢ م، المدينة المنورة.

٧. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ت: عبد المحسن التركي وآخرون، ط الأولى، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٦م بيروت، لبنان.

٨. الخطاب السياسي في القرآن السلطة والجماعة ومنظومة القيم، عبد الرحمن الحاج، ط الأولى، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠١٢، بيروت، لبنان.

٩. الرسالة للإمام الشافعي، تحقيق: أحمد شاكر، ط الأولى، الدار العالمية للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٣١هـ – ٢٠١٣م.

١٠. السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، عبد الكريم زيدان، ط ٢ مؤسسة الرسالة ١٩٩٨ – ١٤١٩ بيروت

١١. السيرة النبوية لابن هشام تحقيق / مصطفى السقا – إبراهيم الإبياري –

عبدالحفيظ شلبي.

١٢. على عتبات الحضارة بحث في السنن وعوامل التخلق والانهيار، د بتول أحمد جندية، دار الملتقى ط الأولى ٢٠٠١ – ١٤٣٢ – سورية – حلب.

١٣. مجلة حراء، مقال د/ عمار جيدل بعنوان: (الثقافة السننية وصناعة المستقبل) العدد ٢٤ / السنة السادسة / (مايو – يونيو) ٢٠١١.

١٤. محاضرات في فقه الدعوة إلى الله تعالى د/ احمد زايد، الأولى، مكتبة الايمان، القاهرة، ٢٠١٣م.

١٥. مدخل إلى الفلسفة ومشكلاتها، د/ حربي عباس عطيتو، د/ موزة محمد عبيدان، ط الأولى، ٢٠٠٣، دار النهضة العربية، بيروت – لبنان.

١٦. المستصفى في علم الأصول، أبو حامد الغزالي، ط بولاق، القاهرة، ١٣٢٢هـ.

١٧. المعجم الوجيز إصدار مجمع اللغة العربية- مصر- ١٩٩٤. بدون رقم الطبعة.

١٨. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ت: محمد سيد كيلاني – ط دار المعرفة، بيروت – بدون.

١٩. مقاصد الشريعة الإسلامية محمد الطاهر بن عاشور، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي، ط الأولى١٩٩٩ – دار الفجر، ودار النفائس الأردن.

٢٠. مقاصد الشريعة ومكارمها، علال الفاسي – ط. مؤسسة الفاسي – المغرب.

٢١. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إصدار الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ١٤٢٤هـ، المملكة العربية السعودية.

٢٢. نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، أحمد الريسوني، تقديم د. طه جابر العلواني – إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي – ط. الثانية ١٤١٢هـ–١٩٩٢م.

Islamic discourse structure: A study in content and function

Dr. Ahmed Mohammed Zayed

Professor Dawa and the Islamic Culture Co.

Call the Department of Islamic culture - the College of Sharia and Islamic Studies

Qatar University.

Abstract

A brief study concentrates on the Islamic discourse in terms of structure and content. The study defines the items of this structure and its function in the discourse with a purpose of crystallize an image, which is characterized by integration and balance in content and realizes persuasion and change in the outcome. The Islamic discourse structure in its desired image - as per the view of researcher - should include five key contents, which are (General guidance content, moral content, fiqh content, purpose content, Sunni content). Each content has a function that should be practically taken into account, so that the preacher moves from fundamentalist approach and description into activation and operation.

Key words:

Discourse - Structure - Guidance - Moral - Purpose - Sunni - Function